اعادة البناء [1]

سنة اخرى تدور دورتها فتسير قوافل المنتهين والمنتهيات امام رؤساء معاهدهم ويتسلمون من ايديهم الشهادات والجوائز، ويقبل الوالدون والوالدات والاقارب والاصدقاء مهنئين. وما ان تتلاشى هذه الاصوات حتى يقف المهنئون على عتبة معترك الحياة وجهاً لوجه مع المستقبل. والمستقبل في احسن حالاته مجهول، يقبل عليه الانسان وملء برديه الامل احياناً والوجل احياناً اخر. والحالة النفسية التي يجابه بها الانسان مستقبله وليدة حاضره.

واقل ما يقال في الحاضر العربي انه مخيف، وكذلك الحاضر العالمي. فعالمنا مملوء بالمخاوف، محفوف بالاخطار، مهدد بالويلات يخيم عليه القلق والخوف. والخوف كما تعلمون يولد في الفرد والمجتمع عداء للتطور ويدفعهما الى التمسك باهداب الحاضر او التهرب الى ذكريات الماضي. وما اكثر ما يترحم الناس على

---

(١) القيت هذه الكلمة في حفلة اليوبيل الخمسيني وتوزيع الشهادات في مدرسة «الفرندز» في رام‌الله، الاردن، في ٢ تموز ١٩٥١

الماضي لا لسبب سوى النقمة على الحاضر والخوف من المستقبل ، فيرددون مع الشاعر :

لله ايامنـــا ما كان احسنها

والشام ما كان احلاها بواديها

كنا معا في نعيم لا يمل فهل

تعود أزمنة عيناي تبكيها ؟

ان هاتيك الايام لا تعود ، ولن تعود ، ويجب الا تعود . إذ على الرغم من جميع المحن والمصائب التي ألمت بالعرب ، على الرغم من ذلك كله اقول اننا نعيش في زمن يفوق كل ما سبقه من ازمنة خطورة يجعل الحياة في حد ذاتها شرفاً وامتيـــازاً ، وتتطلب سهراً مستمراً ، وجهـاداً ، وتلقي على عاتق كل فرد تبعـــة ايما تبعة .

انتم اذن ايها المنتهون الذين تقفون على عتبة حياتكم العلميـــة في احرج فترة من التاريخ العربي تغبطون على هذا الامتيـاز . اقول هذا مع علمي ان عالمكم الذي نشأتم فيـه فتيان وفتيات قد درست معالمه وتلاشت قيمه وتحطمت مقاييسه وانقلبت اوضاعـه رأساً على عقب . وقد وكل اليكم ان توجدوا له بديلاً وان تقيموا صرح مستقبل افضل وابقى . فأسس البنيان القديم انهارت وعفى عليه العرم لانها كانت مبنية على رمل . وقد اعطي لكم ان تقيموا مكانها اسساً جديدة مبنية على صخر . وحذار ان ايام الرخـــاء

واليسر ولت وحل محلها الجهد والعسر .

فمهمتكم التي انتدبتم للقيام بها هي ان تعيدوا بناء صرح هدمه الزلزال . عليكم ان تنقذوا الوطن المفقود من ايدي المغتصبين واهم من هذا واشد إلحاحاً أن تنقذوا الشعب . فما هي الخطوات التي ينتظر منكم ان تقوموا بها لاتمام هذا الواجب المقدس في اروع فترة من التاريخ .

اولى هذه الخطوات او الواجبات ان تقاوموا كل ما يطيب لكم ان تنظروا الى الوراء . فقد علمتني الحياة درساً تلقنته في ايام حداثتي ولم أتفهمه إلا بعد ان خبرت الحياة واتعابها . فلما كنت صغيراً درست نظير اخوتي واخواتي الكتاب المقدس بقصصه وادبه وسير رجاله . وكثيراً ما ترددت على مسامعي قصة امرأة لوط وما آل اليه امرها لما خرجت وذويها من سدوم وعمورة وكان الملاك قد امرهم ألا ينظروا الى الوراء بل يتابعوا المسير الى الامام . غير ان امرأة لوط لم تستطع إلا ان تنظر الى الوراء فتحولت فوراً الى عمود ملح . لم اصدق القصة آنذاك ويصعب ان اصدقها الآن ، غير اني افهم اليوم مغزاها . فالحياة لا ترحم احداً يتعلق باهداب الماضي ويصبو اليه ، كذلك لا ترحم الحياة شعباً يفضل العيش في الماضي على السير في جادة العمل والامل . ومن يحاول ان يعيش في الماضي يمت مهما يكن ذلك الماضي عظيما ومجيداً .

ثاني ما ينتظر منكم ألا تستسلموا إلى اليأس . أنا اعلم بالفشل

تلو الفشل الذي مني به العرب في جهادهم القومي ولا يزالون . أنا اعلم ان عدداً كبيراً من اللاجئين لا يزالون حتى هذه الساعة يفترشون الغبار صيفاً والأوحال شتاء ويلتحفون السماء ويبيتون على الطوى ، يكاد حبل املهم ان ينقطع ونور رجائهم أن يخبو وارادتهم للحياة ان تنعدم .

انا اعلم بعدم الاكتراث واللامبالاة بمصيرهم . غير اني اعلم ايضاً ان لا داعي للعربي ان يستسلم لليأس ما دام في النفس رمق حياة . وما اليأس إلا فالج روحي يشل اعصاب كل من ابتلى به من الأفراد والشعوب . وحاجتنا اليوم إلى رجال اشداء ، لا الى اشلاء إذا اردنا ان نتم المهمة الملقاة على عاتقنا حتى تبارکنا الأجيال المقبلة .

وثالث ما ينتظر منكم الا تستسلموا إلى الشك . فالعربي اليوم بسبب من تكسر نصال المصائب على النصال في حياته ، وبسبب من تهافت قيمها ومثلها ، وبسبب من تحطم آماله ، اصبح يشكك في كل شيء حتى نفسه . ولن اعجب اذا انبرى واحد منكم مشككاً في صدق ما اقوله الآن ومرتاباً في قيمته . والشك يولد الخوف ، والخوف يولد النقمة ، والعربي ناقم على المجتمع وعلى اوضاعه ومثله ، ناقم على البشرية وعلى آمالها ، ناقم على الحياة وعلى احلامها . وهو اشبه بشمشون بعد ان غدرت به دليلة وجز شعره وسملت عيناه ، قد يغتنم اقرب فرصة للانتقام من اعدائه حتى إذا ادى ذلك إلى الانتحار . فهو يتلمس اعمدة الهيكل وما ان يستند اليها حتى يدفعها

بقوة النقمة واليأس قائلًا : « علي وعلى اعدائي يا رب » .

إن واجبكم ايها المنتهون ان تبرهنوا للملأ ان الروح العربيةعلى الرغم من كل ما انتاب العرب من فشل وخيبة ، وعلى الرغم من كل ما ألمّ بهم من مصائب وويلات ، لا تزال ثائرة جبارة ، تأبى ان تسحقها التجارب ، بل ستخرج لا محالة من نيران الأزمات نقية مصفاة من الدغل والفساد ، تصبو إلى الجهاد الدائم والعمل المنظم المستمر .

ستخرجون من هذا المجتمع المدرسي المثالي الى مجتمع حطمت آماله الخيبة ، وشل قوته الخوف ، وحجر امانيه اليأس ، وشوهت روحه النقمة . وقد وقعت عليكم تبعة بعثه مجتمعاً ملء برديه الأمل ، مفعم القلب بالثقة ، قوي الروح بالمحبة . نعم — الامل والثقة والمحبة — كلمات لا تزال معانيها حية . وواجبكم الذي ينتظركم خارج المدرسة ، لا بل الشرف الذي تغبطون عليه هو ان تعيدوا الى هذه المعاني قواها الفعالة ، وتردوا اليها سلطانها حتى تعود بالعرب الى جادة المجد والفلاح .

ورب قائل « انّى يكن لنا هذا ، والحال كما ذكرت » . فاسمحوا لي ان اجيب على مثل هذا السؤال بتعداد خطوات عملية بسيطة تضمن لنا النجاح اذا وضعت موضع العمل . اولاها ان يهتم العربي بشؤونه ويفيها حقها قبل ان يهتم بشؤون غيره . ولو اولينا فلسطين من الاهتمام ما قد اوليناه كوريا والصين مثلًا لما آلت الحال الى ما آلت اليه . وكثيراً ما يكون اهتمامنا بالامور البعيدة

وسيلة للتهرب من الواجبات الملحـــة . وذووا القربى اولى بالمعروف.

وثانية هذه الخطوات العملية ان يتم الفرد منكم عمل كل يوم بيومه بامانة واخلاص واتقان مهما يكن ذلك العمل صغيراً. ولست بحاجة الى الزيادة في هذه النقطة البديهية لولا ان البعض لا يقبلون على الأمر إلا اذا كان كبيراً ويحتقرون الامور الصغيرة لانهـــا صغيرة ــ ناسين ان حصاة صغيرة كثيراً ما تسند البنيان وتحول دون انهياره .

وثالثة هـذه الخطوات ان يدرك العرب ضرورة العمل المنظم التـــعاوني المستمر ، لأن الارتجال والفردية والطفرة زالت ولن تعود .

غير ان هذه الخطوات لا تقتصر على الأمور العملية بل تتناول كذلك وجهة نظر الفرد إلى نفسه وإلى عمـله وإلى مواطنيه وإلى حكامه والأخيرة هي اهم ما يجب ان يناله التطور . فقد تعود العربي ان يخاف الحكومة ويخشاها ويحسبها السيد المطاع مـــع انها في العرف الديمقراطي بمثابة الموظف أو الخادم المطيع . والحاجة إلى مراقبة الحكومة ومحـاسبتها بينة واضحة ، وبها ، في النهاية يـــتم الاصـــلاح . والشعب الديمقراطي في الحكم الديمقراطي لا يخشى الحكومة بـل يحترمها ، ولا يخافها بل يراقبها ، ويتعاون معها في سبيل المصلحة العامة .

وقد ينبرى في عصر الشك هـذا واحد ويقول : « ما هـذه الترهات التي لا تجدي نفعاً ازاء جسامة الموقف وخطورته. اتبعث هذه البسائـط للعرب قوتهم ومجدهم وتعيد لهم ما فقـدوه من فلسطين ؟ »

جوابي على هذا السؤال واضح وصريح . ان هذه البسائط لا تبعث قوة ولا تعيد وطناً مفقوداً . غير انها تفتدى شعباً وتعيد اليه الثقة والقوة والارادة للحيـاة . وما لم نفتد الشعب ونعد اليه الارادة للحيـاة لن نستعيد الشعب ولن نستعيد الوطن . وعليكم انتم يا ايهـا المنتهون ان تسيروا في طليعة القوى القومية التي تعمل في سبيل الشعب وانقاذه من الجوع والعري والعوز والجهل والشك واليأس والقنوط اولاً وقبل كل شيء .

ومنكم يا ايها المنتهون ننتظر شيئاً آخر . عندما تخرجون الى معترك الحياة وتقتحمون لجتهـا عليكم أن تحتفظوا بمثاليتكم التي تدربتم عليها في جو المدرسة المثالي ، وأن لا تنقطعوا عن أن تحلموا احلامـاً وان تروا رؤى . فـلا يتميز الانسان عن الحيوان إلا باحلامه وبجهوده المتواصلة في سبيـل تحقيقها . واعظم ما يحتاج العرب اليوم في وسط هذه الفترة العصيبة المستحكمة بهم وفي غمرة الشك واليأس والخوف هو ان يستعيدوا القوة على أن يحلمـوا احلاماً ويروا رؤى ويواصلوا العمل على تحقيقها .

واني أرى بعـين الرجاء شعباً صهرته المحن وطهرته الآلام ، يحدوه الايمان ويشد ساعده العلم ، ينتصب ليجيب على تحـديات

الاعداء ويبرهن للعالم ان حيرتنا قد استحالت إلى يقين وقلقنا إلى طمأنينة وخوفنا إلى اقدام وشكنا إلى ثقة ويأسنا إلى أمل وضعفنا إلى قـوة ، ويبين للناس جميعاً ان الروح العربية ، كالعنقاء الطائر العربي ، لن تمـوت البتة ، بل تنبعث من وسط الرماد وتعود إلى الحياة وهي تفيض قوة ونشاطاً وأملاً .

obeikandl.com